اللغة بين الفرد والمجتمع

د. عبد الغفار حامد هلال

مدخل :

الإنسان مدني بطبعه — كما يقول علماء الاجتماع — فهو يميل إلى الانتماء إلى طائفة من بني جنسه ، ليجتمع لهم جملة من الخصائص ، والسمات ، التي تميز جماعة عن غيرها ، ومبعث ذلك الغريزة التي ركب عليها الإنسان ، والتي تدفعه إلى تكوين هيئة اجتماعية ولذا يمكن لاثنين من شعبين مختلفين أن يأتلفا على بعض الخصائص ، ويتناسيا الفروق الموجودة بين شعبيهما إذا عاشا معا مدة طويلة ، كفرنسي وفارسي أو عربي وانجليزي مثلا[1] .

وانتماء الفرد للجماعة يتحدد بتحدد الجماعة ذاتها ، فالأسرة جماعة ، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ، ثم الدولة ، وأخيرا الجنس البشري[2] .

وهذا الانتماء يأخذ أشكالا متعددة ، فهو — أحيانا — سياسي ، أو جغرافي ، أو جنسي ، أو لغوي ، وقد تعددت المصطلحات السياسية التي تطلق على تلك الجماعات[3] .

بيد أننا نعني — هنا — جماعة خاصة ، من وجهة نظر خاصة هي ما نسميها (الجماعة اللغوية) ، وهي : هيئة اجتماعية ، صغر حجمها ، أو كبر ، أو بعبارة أخرى تتدرج من الصغر إلى الكبر ، فهي تبدأ بالأسرة ثم العائلة ، ثم القبيلة ، ثم الأمة .

ولا يهمنا كثيرا الاختلاف السياسي أو الديني إذا توفر الاشتراك اللغوي[4] .

ويمكن أن نقسم الوحدات الكبيرة إلى وحدات

---

(1) فندريس : اللغة ص 302 .

(2) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2 .

(3) من هذه المصطلحات : (الشعب) و(الدولة) و(الأمة) فالشعب : جماعة من الناس تستقر على أرض واحدة ، أو تخضع لسلطة واحدة ، والدولة تعبير سياسي وقانوني يشير إلى الوحدة السياسية التي تضم أركانا ثلاثة هي : (شعب واقليم وسلطة سياسية) . والأمة : جماعة من الناس يرتبطون بأهداف مشتركة ويتبادلون الشعور بأنهم وحدة بشرية اجتماعية واحدة ، نتيجة التقائهم في عدد من العناصر ، كالأصل واللغة والدين ، ووحدة التاريخ ..
وقد تسمى إحدى الجماعات (شعبا ودولة وأمة) ، وقد تسمى (شعبا ودولة) لا (أمة) كسكان سويسرا ، وقد تمزق الأمة بخضوعها لعدة سلطات سياسية ولا يعني هذا فناء الأمة كالأمة البولونية بعد تمزقها على يد جاراتها بعد أواسط القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم العربي أمة ، وان توزعت السلطة فيه .
انظر : د. أحمد كمال أبو المجد : دراسات في المجتمع العربي والوحدة العربية ص 24 — 29 .

(4) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 52 .

صغيرة ، وننظر إلى كل وحدة في إطار اللغة التي تتحدث بها ، في القرية ، أو المدينة ، والطبقات الاجتماعية المتنوعة من المتعلمين والفلاحين ، وأصحاب المهن ، والأشقياء وغيرهم .

«وتلعب اللغة (دورا ذا أهمية عظمى في الجماعة الاجتماعية) مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها ، فاللغة أوثق العرى التي تجمع بين أعضاء هذه الجماعة ، وهي — على الدوام — رمز ما بينهم من تشارك ، وحارسه الأمين ، وأية آلة أفعل من اللغة في توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها ، وتنوع حياتها ، ولطف سريانها ، واختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة ، وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضا ، ويهرع بعضهم إلى بعض»[5] .

وبديهي أن اللغة هي الأداة التي يستعملها أفراد كل جماعة لغوية ، للتعبير عما يهمهم من شئون ، وهي قانون من قوانين هذه الجماعة ، يعد الخروج عليه أمرا صعبا ، ومحرجا ، ومؤديا إلى السخرية ، ويقاوم بصرامة من بقية أفرادها[6] .

«وان هبة الكلام واللغة من خصائص المجموعات الإنسانية ، ولم يعثر قط على جماعة بلا لغة .... وحقيقة هذه المسألة أن اللغة وسيلة تعبيرية واتصالية كاملة بالضرورة كما تلاحظ ذلك في كل مجتمع معروف»[7] .

ولم يكن يدرك قديما ما للغة من صلات بالمجتمع الذي تعيش فيه ، لأنهم اعتبروها هبة الله التي لا يحق لأحد أن يغير فيها ، أو يعدل من طرائقها ، ثم درست على هذا الأساس فترة من الزمان ، ولكن بعد تقدم العلوم الانسانية ، وادراك حقائق الظواهر الاجتماعية لوحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن يهتدى على إثر هذا الادراك إلى معرفة خصائص الجماعات البشرية من دراستنا للغات وتاريخها ، وتطوراتها .

أثر الفرد في اللغة

«اللغة هي الصورة اللغوية المثالية التي تفرض نفسها على جميع الأفراد في مجموعة واحدة»[8] .

والفرد والجماعة عنصران لا ينفصل أحدهما عن الآخر . فالفرد يرتبط بجماعته ويقدس ما يقدسون ، ويأتي من الأفعال التقليدية ما يأتون وهو يتبع عرف الجماعة ، وان خالف اعتقاده[9] وإذا سلمنا «بوجود الفرد والمجتمع . باعتبار كل منهما وحدة مستقلة ، فإن من الممكن من الجانب اللغوي أيضا ، أن نتكلم عن اللغة الفردية ، واللغة الجماعية ، وكلا هذين العنصرين يؤثر ، ويتأثر بالعنصر الآخر»[10] .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تنشأ عند الأفراد ، والجماعات ، ودراستها تتسم بالبحث في الجانب الفردي ، والجانب الجماعي ، وإن كان علماء الاجتماع يقفون من ذلك موقفين متعارضين .

فيرى بعضهم : أن التعرف على الفرد يؤدي إلى التعرف على الجماعة ، ولذا تدرس لغة الفرد ، ويتوصل من خلالها إلى معرفة لغة الجماعة ، لأنها مجموع الظواهر المشتركة بين جميع الأفراد .

ويقول أوجست كونت (ليس من الضروري أن نعرف ما هو الانسان حتى نعرف ما هي الانسانية ولكن من الضروري أن نعرف ما هي الإنسانية حتى نعرف ما هو الإنسان) .

(5) فندريس : اللغة ص 303 ، 304 .
(6) نفس المرجع السابق .
(7) د. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 112 نقلا عن ادوارد سابير .
(8) فندريس : اللغة ص 306 .
(9) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2 .
(10) نفسه ص 5 .

فالتعرف على الجماعة يؤدي إلى التعرف على الفرد ، ومن هنا تعد دراسة اللغة العامة أساسا لمعرفة لغة الأفراد[11] .

وقد دار نقاش ، وجدل بين الباحثين حول اللغة والكلام ، وجعلتهما بالعقل الفردي ، والعقل الجمعي .

فيرى دي سوسير[12] أن اللغة غير الكلام ، فاللغة مجموعة محدودة من المفردات ، والتراكيب ، توجد في كتب القواعد والقواميس ، وتختزن في عقل الجماعة ، والكلام نشاط فردي ، يختلف من فرد إلى آخر ، من أبناء الجماعة اللغوية الواحدة .

والفرد يولد بلا لغة ، ثم يرثها من جماعته ، ولا يملك التدخل في اختيار مفرداتها أو تنظيم قواعدها .

وعلى الرغم من اختلاف الكلام واللغة فإن لكل منهما علاقة وثيقة بالآخر ، واللغة ذاتها تتطور بتطور الكلام .

وقد قال بالي (تلميذ دي سوسير) : ان الكلام نشاط لغوي فردي يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم فهو وحده الذي يعبر عن الواقعية ، والعاطفية ، بعكس اللغة التي ليست سوى امكانيات تعبيرية .

ومن هنا فإن دي سوسير يرى أن اللغة من نتاج المجتمع ، والكلام من نتاج الأفراد ، وإذا صح أن يكون هناك عقل فردي ، فهناك كذلك عقل جمعي .

وقد اعترض جسبرسن[13] على هذا التفريق ، وقال : ان العقل خاصة توجد للفرد ، لا للجماعة ، والفرد له سلوك وحده ، وسلوك مع الجماعة ، حسب الظروف التي تمر به ، ولا يعدو الاتفاق في العاطفة أو الرأي في جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق في حكم يصدر عن عدة عقول فردية ، قد تأثرت بظروف ، ودوافع متشابهة ، ولست أدري لماذا يقول دي سوسير (العقل الجمعي) ولا يقول (البطن الجمعي) والرجل الجمعي والأنف الجمعي ، إذ ليست لذلك فائدة .

فاللغة ليست القاعدة ، وليست الألفاظ ذاتها ، بل هي شيء آخر يتمثل في الصور الذهنية الموجودة لهذه القواعد ، والألفاظ ، في نفوس أفراد الجماعة ، لا في العقل الجمعي . ويقرب من ذلك قول دي سوسير في عبارة أخرى (اللغة هي مجموعة من صور الألفاظ مختزنة في نفوس أفراد الجماعة اللغوية)[14] .

وينتهي جسبرسن — بعد الرد على دي سوسير — إلى أن اللغة ليست شيئا آخر غير الكلام ، بل هي الكلام ذاته ، ولكن باعتبار آخر .

ويبدو أن النظريتين متقاربتان ، فالفرد جزء من الجماعة ، والجماعة طائفة من الأفراد ، والكلام واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر ولا يستطيع باحث أن يفرق بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلا علامات لغوية ، أي كلمات ، فالتفكير بلا كلمات تمائم[15] «والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها»[16] وما يسميه النحاة أقسام الكلام وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس في الواقع إلا أقسام اللغة ، فقول صاحب الالفية الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه[17] فالكلام الذي هو نشاط إنساني قطعي نتيجة لارادة المتكلم[18] يعد الباعث لكلمات اللغة ، بحيث يجعلها حية بعد موتها ، ووجودها في طوايا العقل ، أو المعاجم فاللغة بمادتها المكونة لها توجد

(11) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 2 .
(12) عالم لغوي سويسري .
(13) عالم لغوي دانيمركي .
(14) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 15 — 23 .
(15) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 244 .
(16) نفسه ص 39 .
(17) نفسه ص 40 .
(18) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 39 .

في القواميس أو تختزن في عقول الجماعة الانسانية التي تتخذها وسيلة للتفاهم ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها ، ويراعونها في استعمالهم من ناحية النظام الصوتي ، والصرفي ، والنحوي . واللغة بهذا الوصف تسمى بـ(اللغة المعنية)[19] التي هي نتاج جماعي يستعمله الأفراد ، «وللكلام علاقة باللغة المعنية . ولذلك يجب أن يدخل في الدراسة لأنه الجانب العملي منها»[20] .

ومن المتعارف عليه بين دارسي العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية . ثم لا تلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد . ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية[21] .

والمدرسة اللغوية الانجليزية ، وضعت لدراسة أية لغة طريقة وصفية . تهتم بالشخص والشخصية . لكن لا تنظر إليه باعتباره «مستقلا» وإنما تدخل في حسابها أنه عضو في جماعة كلامية معينة[22] .

ولا ريب أن جوانب التأثير في اللغة كثيرة . بعضها ينشأ عن الأفراد ، وبعضها يرجع إلى المجتمع .

وللتأثير الفردي مظاهر عدة ، فهو يتناول : الأصوات ، والمفردات . والتراكيب .

1 – أثر الفرد في الأصوات

تبدأ الممارسة اللغوية للانسان منذ طفولته . فالطفل يولد وعنده الاستعداد لتلقي اللغة – أية لغة إذ لا توجد لدى أي طفل في أي مكان لغة فطرية[23] وهو يتعلم لغة المجتمع الذي يعيش فيه . فاللغة ليست وراثية ، بل إنه يتلقاها ممن يخالطهم . ولذا فإن طفلا عربيا نُشِّئَ في بيئة انجليزية تعلم لغة الانجليز . والعكس صحيح أيضا[24] «بل أكثر من هذا أن العلم يزخر بحالات كثيرة لأطفال ترعرعوا لدى الحيوانات كالذئاب والفهود والدببة . وحتى الخرفان . وتعلموا أنواعا من اللغة الحيوانية . فعووا كالذئاب ، وثغوا كالخرفان ، وأصبح من الصعب بعدئذ تعليمهم اللغة الانسانية[25]» .

فالأطفال يتعلمون لغة الجماعة التي يولدون ويعيشون فيها بنفس السرعة التي يتعلمها بها أهلها الأصليون ، ويتكلمونها كما يتكلمها أهلها الأصليون[26] .

وقد توصلت طائفة من اللغويين إلى بعض الملاحظات المهمة التي تتعلق بلغة الطفل ، وأهمها التقسيم الثلاثي الذي ارتضاه جسبرسن ، وهو أن النمو اللغوي للطفل يمر بثلاث مراحل :

1) مرحلة الصياح .
2) مرحلة البأبأة .
3) مرحلة الكلام .

المرحلة الأولى (الصياح) :

فالطفل يصرخ منذ يولد ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن جهازه النطقي ليس كلاما ، ولا يتعلم الطفل به أية

(19) فندريس : اللغة ص 303 ، 304 .
(20) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص 32 – 35 .
(21) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 20 ، 21 .
(22) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 25 – 31 .
(23) كندراتوف : أصوات وإشارات ص 191 .
(24) فندريس : اللغة ص 298 .
(25) كندراتوف : أصوات واشارات ص 191 ، 192 .
(26) فاللغة «مكتسبة» ولكن أثمة دخل للوراثة في قدرة الأطفال على اكتساب اللغة ؟ وهل للوراثة شأن في اكتساب طفل لغته أسرع من اكتساب طفل غيره نفس اللغة ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال ونظائره مرهونة بتقدم بحوث علم الوراثة ، وعلم الاعصاب وعلم الحياة العام (الأحياء : البيولوجيا) إذ البحث فيها لما يصل إلى الغاية المنشودة ، وينتظر أن تؤدي البحوث المقبلة فيها إلى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها .
انظر : د. السعران : اللغة والمجتمع ص 27 ، 34 .

لغة ، لجماعته أو لغيرها من الجماعات البشرية .

وهذا الصياح مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يؤدي ـ في أوله ـ غرضا ولكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه الطفل في التعبير العام عن كل ما يهمه وبخاصة عندما يدرك من حوله أثره فيهم .

وهذه الأصوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصوتي على الكلام فينتقل إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية (البأباة) :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل أ أ ـ م م ـ ب ب ـ ت ت ـ د د الخ .

وتكون في أولها نشاطا عضليا خالصا ، ثم تأخذ أعضاء النطق عنده شيئا فشيئا في التدرب عليها ، والتحكم فيها فيستطيع الطفل نطق الصوت الذي يريده .

ويأخذ الطفل ـ بعد ذلك ـ في تدريب عضلاته الصوتية على النطق بهذه الأصوات التي يستمتع بها هو ومن حوله .

والشائع أن أول ما ينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل (لَ ـ رِ ـ تُ الخ) «وتعد الصوائت الشفوية التي يرمز إليها بـ p, b, m (پ ، ب ، م) من الصوامت الأولى التي ينطقها الطفل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق» وفي هذه المرحلة ربما صدرت عن الطفل أصوات ليست من مجموع الأبجدية التي تستعملها جماعته مثل (P , v) عند طفل عربي مثلا ، بيد أنه ينطق عددا كبيرا من أصوات أبجدية قومه .

المرحلة الثالثة (الكلام) :

تبدأ من حوالي نهاية السنة الأولى ، وتمتد سنوات طويلة ويمر خلالها بمرحلتين .

ا ـ فترة اللغة الصغيرة :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيرا عن الأصل الذي يقلده ، كأنْ يقول الطفل المصري (م م) بدلا من (الأكل) (امبو) بدلا من (ميه) و(ب) بدلا من (عيش) مثلا وقد سمعت ابني في تلك المرحلة يقول (مكّن) بدلا من (مطبخ) .

ب ـ فترة اللغة المشتركة :

وفيها ينظم كلامه كثيرا ، ويظل وقتا طويلا حتّى يصير كلامه مثل الكبار .

ولاشك أن الطفل في تلك المرحلة يحرف كثيرا من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية .

فيقول مثلا (ستينه) مكان (سكينه) و(تتاب) مكان (كتاب) .

وقد لاحظت أن ابني في أول هذه المرحلة ـ يميل إلى قلب بعض الكلمات فيقول (تعبل) مكان (ثعلب) ...

وبعض الأصوات اللغوية قد يخفَى على الطفل ، أو يظل صعب النطق لا يتقنه إلا في مرحلة متأخرة كصوت الراء أو السين في بعض الأحيان .

وكثيرا ما يكتفي الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابني يقول (كب) مكان (كلب) و(بايه) مكان (كباية) ونحوها .

ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يميز الكلام الذي يوجه إليه بحب وعطف من ذلك الذي يوجه إليه بحدة ، وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثاني .

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وإنما يتعلم الجانب الصوتي للكلمات مرتبطا بالمعاني .

وعادة ما يدرك معاني الكلمات التي تلقَى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات .

وأخيرا يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد ما يلقَى عليه من قبل أمه وأبيه وأسرته والمحيطين به ،

وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئا فشيئا .

وللطفل قياسه اللغوي في النواحي الصوتية والنحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك التذكير والتأنيث ، فقد يتسرب إلى ذهنه أن المؤنث يكون بالتاء ـ كما هو العادة الشائعة ـ . فيطبق ذلك على بعض الكلمات التي لا تؤنث بالتاء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فإذا أراد تأنيث (أخضر) مثلا قال : (أخضرة) و(أحمر) قال (أحمرة) .

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين ينتمون إلى جماعته الكلامية وان كانت ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا[27] .

وإذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهل لاخطائه أثر في أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد ـ بصفة عامة ـ صغارا أو كبارا تأثير فيها ؟.

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون في نسبة التغير الصوتي إلى الأفراد .

فينفي (جوشات) أن يكون للطفل أي أثر في التطور الصوتي للغة فهو يقول : «ان كل لغة تتهيأ تهيأ خاصا بين جيل وجيل يمكن للتطور في أصواتها ، وبذلك يخضع أبناء الجيل اللاحق من الراشدين ـ دون الأطفال ـ للتطور الجديد ، وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوي ولا أكثر . وعندما يخطئ الطفل في نطق بعض الكلمات فليس ذلك بدء التطور في أصوات اللغة التي يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين . وذلك لأن طبيعة اللغة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد . ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنا مناسبة ، أي عندما يتجاوز دور الطفولة»[28] .

وينفي جوشات ـ كذلك ـ أن يكون للفرد ـ صغيرا أو كبيرا ـ أي أثر في التطور الصوتي فيقول : «ليس للفرد أي دخل في التطور الصوتي» وقد اعتمد في حكمه هذا على النتائج التي توصل إليها في بحث تتبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التي تقيم في المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بولّ) Bulle في مقاطعة قريبورج لبيان تأثير الفرد في اللغة ، وكانت تلك المنطقة معزولة تماما عن المناطق الأخرى المجاورة لها .

وقد اكتشف جوشات فروقا كبيرة في طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، ولما انتقل إلى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقا صوتية بين أفراده تماثل الفروق التي وجدها بين أفراد الجزء الأول . وكذلك كان الحال في الجزء الذي يليه ، والذي يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقا مكانية بمعنى أن اللغة في جزء ما من الاقليم تختلف عنها في جزء آخر . بل انها كانت فروقا زمنية ، أي فروقا بين جيل وجيل . وأن الاختلاف اللغوي بين أبناء جيلين مختلفين في جزء واحد أكثر مما بين أبناء جيل واحد ، في جزءين مختلفين .

وبين أن المقارنة بين لغتي اثنين من الشيوخ ـ ينتمي أحدهما لجزء من هذا الأقليم يختلف عن الجزء الذي ينتمي إليه الآخر ـ تثبت تحقق التشابه في مخارج الحروف لديهما أكثر مما بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذي ينتمي إليه ولهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام .

1) المعمرون :

وهم بين الستين والتسعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قديمة كثيرا ما تبدو غريبة لسواهم .

---

(27) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 34 ـ 54 ، د. وافي : علم اللغة ط 4 ص 110 ـ 155 ، د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 68 ، 69 وكندراتوف : أصوات واشارات ص 190 ـ 193 .

(28) جسبرسن اللغة بين الفرد والمجتمع ص 45 .

2) **المحدثـون :**

وهم دون الثلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفاظهم بطريقة حديثة .

3) **المتوسطـون :**

وهم بين الثلاثين والستين ، وهؤلاء يكوّنون في نطقهم حدا أوسط بين المعمرين والمحدثين ، ولقد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة إلى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم في اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كما لاحظ أنهم يلتزمون في بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفي بعضها الآخر طريقة النطق القديم .

أما النساء فقد كن أكثر ميلا لاتباع طريقة النطق الحديث ، وقد حدا هذا بجوشات أن يقرر أن دور المرأة في التطور الصوتي أكبر خطراً من دور الرجل .

وقد أثبت جوشات أن الفرد ليس له أثر في التطور الصوتي ، بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغة فردية لابناء هذه المنطقة لم يتبين له من خلالها مثل هذا التأثير الفردي في تطور اللغة التي يتكلمها أبناء هذه الجماعة اللغوية .

وينسب جوشات التغير الصوتي إلى الجماعة لا إلى الأفراد فيقول ان التغير أمر حتمي طبيعي وليس أمرا خاضعا لارادة فرد متميز أو غير متميز ، ومعنَى أنه أمر حتمي طبيعي أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص في مكان ما ثم يقلّد وينطقه في نفس الوقت شخص ثان في مكان ثان ، وثالث ورابع في مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلدون وهكذا[29] .

ويتفق فندريس مع جوشات في هذه الوجهة التي تمنع أثر الفرد في الأصوات فيقول : «ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتي انما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغيرا فرديا ، ثم عمم ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس في وسع أي فرد أن يفرض على جيرانه نطقا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتي ، فلأجل أن يصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدَى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شيء ، فإن النطق الشاذ لا يجلب اتباعا لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه»[30] .

ويرَى جسبرسن أن نفي التأثير الصوتي للأفراد غير مسلم به ، وأن البحث الذي أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد في التطور الصوتي ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لاثبات أثر الفرد في الأصوات[31] .

ولعل الدافع إلى انكار أثر الفرد في التطور الصوتي هو الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس «ان العالم اللغوي لا يعرف إلى أي مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقَى مترددا بين الاعتبار الفردي والاعتبار الجنسي بأسره»[32] ويقول الدكتور تمام (بالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الانسان أن يقول عند أي حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتَّى أن نفطن إلى التغيرات التي تأخذ مجراها الآن على غير وعي منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما إذا كان تغير ما قد بدأ فرديا ثم اتسع مدَى تطبيقه ، أو أنه بدأ على ألسنة ناسَ مختلفين ، ولا يستطاع نسبته إلى فرد معين منهم[33] .

والحقيقة التي لا يمكن انكارها أن التطور الصوتي

(29) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 ، 38 .
(30) فندريس : اللغة ص 69 .
(31) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 — 44 .
(32) فندريس : اللغة ص 296 .
(33) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 94 .

يعود في بعض نواحيه إلى الافراد ، وان لم يتعين الفرد الذي تابعه غيره ، فمن الحق الذي لا ريب فيه —كما يقول فندريس— أن كل فرد يدخل في اللغة جزءا من التجديد خاصا به»[34] .

ومن المسلم به «أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق ، واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتي»[35] و«أن الفرد كما يقول الدكتور تمام حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئا فشيئا عن نطق المجموع حتّى يختلف عنه»[36] .

قد شك أن عملية التغيير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم حتّى تعمم ، فالجانب الفردي ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتّى لمن ينسب التغيير إلى الجماعة أن ينفيه مطلقا[37] .

2 — أثر الفرد في المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد في المفردات والتراكيب فهو واقع لغوي يعترف به الباحثون فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، ان الصبي في المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله — ولو كانوا مثله سنا كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائر من اتصل بهم من قبل[38] .

ومن الممكن أن يبتكر الفرد لفظا من الألفاظ —كما يحدث في المجامع اللغوية— أو أن يرتكب خطأ في نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردي في اللغة مغيرا للأمر الواقع الذي هو أن الفرد وليست الجماعة هو السبب في التغير اللغوي[39] .

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة إلا في محيط الأسرة .

ومما يبتكره الفرد في مجال اللغة ، نقل الألفاظ إلى معان جديدة ، ويشترط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف في أسلوب المجاز .

وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ إلى معان خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو الطاغوت اسما لوالد مستبد ، و(القط) لطفل مدلل في

(34) فندريس : اللغة ص 295 ، 296 .
(35) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 92 .
(36) نفس المرجع السابق ص 92 .
(37) في العربية الفصحى أصوات تحتاج إلى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت القاف الذي تحول على لسان غير المثقفين بالعربية إلى (كاف) والذال تحولت في العامية إلى زاي أو دال وهكذا ، وبعض الظواهر اللغوية تؤدي إلى التطور الصوتي ، فظاهرة التفخيم أدت — مخالفة للفصحى — إلى نطق كلمة (دَرْب) : (ضرب) — في العامية — بتحويل (الدال إلى ضاد) .
(38) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 57 . وانظر : جسبرسن — اللغة بين الفرد والمجتمع ص 53 — وقد اثبتت التجارب أن الاطفال يخترعون بعض الألفاظ والصيغ ونحن نسمع منهم كثيرا يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة .
انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ط 3 ص 87 — 89 وأحمد الاسكندري : فقه اللغة ص 30 .
(39) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال في اللغة العربية ، فالعربي الفصيح كان يخترع ألفاظا ويشتق أخرى أو يقيسها متبعا طرق التجديد في ذلك ، ويروى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها .
والباحث في العربية يعثر في بعض مصنفاتها على كلمات وصفت بالاختراع فقيل عنها أنها مصنوعة . وقد أورد السيوطي في المزهر عددا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة ، وقد روي في بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا ..
وفي كتب النحاة ما يرشدنا إلى اعترافهم بالارتجال في أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه إلى منقول ومرتجل .
وفي العامية كثير من الألفاظ التي لا أصل لها في اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية وهي ترجع إلى اختراع الأفراد والجماعات ، وذكر الدكتور ابراهيم أنيس أنهم كانوا يقولون — على سبيل الاختراع — وهم طلبة مثل :

الأسرة و(شعبه) لطفل بغية أن يعيش، وغير ذلك مما يستعمل في نطاق محدود. وهو نوع من ابتكار المعاني ونقل استعمالات الألفاظ.

والفرد ــ حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب ــ مقيد بالعرف اللغوي المتعلق بالدلالة، وقد أشرنا في حديثنا عن الدلالة إلى أن مخالفة الأساليب العربية يزيد من صعوبة المعنى[40] ولو نطقنا ــ في العامية ــ (قلم أحمد على معاه) بدل (عال معاه قلم أحمد) لثار شعور السامعين لمخالفة العرف اللغوي.

ولذا يشترط في ابتكار الفرد عنصر الأفهام لدى الجماعة اللغوية. اللهم إلا في لغة الطفل أو (رغائه) فإنها تفقد هذا العنصر. وكذلك محاولة ارسال بعض الأصوات لمجرد اللهو والهوى. وفيما عدا ذلك يجب أن يتبع الفرد في كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة[40].

وهم عشر العقلمين. تفنطحت سلفا قناه كبز فرع القنظل

انظر: ابن جني: الخصائص 2 / 21 ــ 28 ومواضع أخرى منها 3 / 298. والسيوطي: المزهر 1 / 52 ــ 56، 63 ــ 67، 90 وغيرها. والأصفهاني: الأغاني 3 / 62 والمسعودي: وبروج الذهب 4 / 43 والاشموني 1 / 131، د. أنيس: من أسرار اللغة ط 3 ص 90 ــ 92.

(40) جسبرسن: اللغة بين الفرد والمجتمع ص 23، 43.